المنقذ أو البطل في التاريخ الإفريقي / تيبوتب Tipputip

وردت هذه الفكرة ، بعد قراءتي لكتابTippu Tip تيبوتب – وهو الإسم الذي أطلقه زنج زنجبار وشرق إفريقيا على التأجر والمقاتل الإفريقي العربي على حامد بن محمد المولود في ثلاثنيات القرن التاسع عشر والمتوفي في زنجبار في يونيو 1905 بعد أن تجاوز السبعين عاما – وعاش وأحرز مجده الذي دخل به في التاريخ الإفريقي في ذات الفترة التي ظهر فيها أبرز أبطال التاريخ الإفريقي مثل الزبير باشا رحمة ، ومحمد أحمد المهدي في السودان وعرابي باشا في مصر وعمر الفوتي في غرب إفريقيا كما عاصر تيبوتب معظم المكتشفين من الأوربيين امثال اسبك Speke وأمين باشا ، وصمويل بيكر ولفنجستون الخ .

ومن غرائب التاريخ الإفريقي ، أنه لاتوجد محددات أو معايير للبطولة، لأن المجتمعات الإفريقية عانت وتعاني من الإستقطاب والصراعات والإنقسام ، مما أدى إلى تلاشي الموضوعية – وهذه هي مشكلة بطلنا تيبو المولود من أسرة عربية تزاوجت وتناسلت مع أسرزنجية / افريقية، وبالنسبة للخواجات والمستشرقين فإن تيبوتب (حامد بن محمد) بطل لأنه اكتشف مجاهل القارة الإفريقية وأول من وضع قدمه في متاهات الكنغو – كما أنه ابرز اريحية تجاه المستكشفين الأوربيين ، فقد استضاف لفنجستون ، كما كان شريكا لهنري استنالي في رحلته لاتشكاف مجاهيل الكنغو ولو أن التاريخ لايكتبه إلا الأقوياء ، كان يجب أن تسمى شلالات استاتلي ، شلالات العرب أو شلالات حامد – كما أنه أسهم في إنقاذ أمين باشا حاكم الإستوائية الذي فر بعد قيام الدولة المهدية .

لم يك تيبو صاحب دعوة دينية وإنما كان تاجرا يلتقط سني الفيل " العاج" من مجاهيل إفريقيا ثم يغذي به السوق العالمي فاصبح صاحب تجارة واسعة ومملكة امتدت من الساحل الإفريقي حتى اعماق الكنغو وتنزانيا الحالية ، وكان يعتبر نفسه الممثل الرسمي للأسرة العمانية البوسعيدية الحاكمة في زنجبار ونجح في تكسير الممالك المحلية والمشيخات وضمها إلى مملكته كما نسق حركة الاسر العربية في المنطقة ، التي تاجرت في العاج والرقيق وتصاهرت مع الأسر الإفريقية وتكلمت باللغة السواحيلية وانتجت حضارة الساحل الإفريقي وقاومت البرتغاليين والألمان، ومع إن تيبوتب كان يتعاون مع الأوربيين ويخشي سطوتهم ويعرف قوتهم – إلا أن أبنه سيف كان من ضحايا حركة الاستعمار في وسط إفريقيا التي قادها البلجيك تحت رعاية ملكهم ليبولد الثاني حيث خرجت الأمور من يد حكمه تيوتب وقام العرب بقيادة ابنه لمجابهة الأوربيين وقتلوا حتى أمين باشا Schitzer وهو الماني من أصول

يهودية – وبالسلاح الناري تم تدمير المشيخات العربية غرب تنجانيقا وأصبحت المنطقة حيازة المائية/ بلجيكية .

ولإدراك وضعية تيبوتب ، يحسن أن تقارن وضعيته باهم الرموز الإفريقية التي عاصرته أو برزت في القرن التاسع عشر قرن الزحف الاستعماري والتكالب على إفريقيا تحت رايات التمدن والحضارة والتنصير والتجارة – حيث برز في غرب أفريقيا الشيخ عمر الفوتي (1796 – 1867) وكان مشروعه يقوم على مقاومة الاستعمار الفرنسي وبسط الطريقة التجانية ، وفي مصر برز أحمد عرابي (1840 – 1911) وكان مشروعه يقوم على تمصير جيش الخديوية ومقاومة الإنجليز وفي السودان برز الزبير باشا (1830– 1913) وهو الأشبه بتيبوتب لأنه خرج للتجارة ، ثم صارت له مملكة في بحر الغزال كما كان نصيرا للدولة الخيدوية ، كما برز في الفترة السيد محمد أحمد المهدي ومشروع المهدوية في نسخته التعايشية وهو ضد الدولة الخيدوية وامتداداتها الأوربية ويقدم رأيه دينيه مهدوية لم يعرفها التاريخ الإسلامي ، وسقطت كل هذه الرايات وتبنى حتى الإحفاد مشاريع التمدن والحضارة الواردة من المستعمر ، لسبب بسيط أن مشاريعهم افتقرت لمطلوبات مخاطبة العصر كما افتقرت للعمق الحضاري وفتح مسارات المستقبل– ولذلك هي حنين لصدي قديم ومجرد آهات وانين وتوجع وليس فيها روح التجديد واللحاق بالعصر والله أعلم ..

أ.د. حسن مكي